

## حدود النمذجة المعرفية في العلوم الإجتماعية والإنسانية:

## قراءة في مرافعات فلاسفة ما بعد الوضعية

## Limitations of Paradigmatisation in the Social and Human Sciences:

## Reading in the Pleadings of Post-Positivist Philosophers

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2021/07/15 | تاريخ القبول: 2021/05/09 | تاريخ الإرسال: 2020/09/20 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

د. منصر جمال

جامعة 8 ماي 1945 - قالمة

menanceur.djamel@univ-guelma.dz

د. عديلة محمد الطاهر

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

mohamedtahir.adila@univ-msila.dz

## ملخص :

بينما تتفاخر العلوم الدقيقة بدرجات التقدم والنضج الذي وصلته، من خلال الإتفاق بين أعضاء مجتمعاتها العلمية حول النماذج المعرفية المهيمنة والسائدة فيها، لا يزال تطبيق مفهوم النموذج المعرفي، الذي اخترعه توماس كون لدراسة وقياس نضج العلوم وتقدمها، في العلوم الإجتماعية والإنسانية يثير جدلا كبيرا، بين مقتنع بإمكانية هذا التطبيق، وبين رافض لهذه الإمكانية جملة وتفصيلا.

تحاول هذه الدراسة البحث في حجج وأدلة قناعة هؤلاء، وفي أسباب وتبريرات الرفض لأولئك. من خلال مُساءلة الحدود التي يمكن أن تقف عندها إمكانية النمذجة المعرفية في العلوم الإجتماعية والإنسانية بوجه عام. مستعينة بفرضية مفادها أن حدود النمذجة يرسمها في الواقع الإختلاف الكبير بين خصائص كل من الظاهرتين الطبيعية والإجتماعية. وقد تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة أجزاء أساسية: يتناول الأول منها مفهوم النموذج المعرفي، ويبحث الثاني في إمكانية النمذجة المعرفية في العلوم الإجتماعية، بينما يتطرق الثالث إلى العوائق والتحديات التي تقف أم نجاح عملية النمذجة هذه. الكلمات المفتاحية: النموذج المعرفي؛ توماس كون؛ العلم القياسي؛ الوضعية؛ ما بعد الوضعية.

\*المؤلف المرسل: عديلة محمد الطاهر

**Abstract:**

*This study examines the problematic application of the paradigm concept, invented by Thomas Kuhn, in the study of the progress in the social and human sciences. researchers and Scholars have been divided into two different parts on this issue, each with their arguments and evidence.*

*The study starts from the hypothesis that the limits of paradigmatisation are related to the great difference between the characteristics of both natural and social phenomena. The study has been divided into three basic parts: the first deals with the concept of the paradigm, the second deals with the possibility of paradigmatisation in the social sciences, while the third deals with the obstacles and challenges that hinder the success of this paradigmatisation.*

**Keywords:** Paradigm; Thomas Kuhn; Normal Science; Positivism; Post-Positivism.

**مقدمة:**

يقود تبني مبادئ الفلسفة الوضعية Positivism في دراسة الظواهر الإجتماعية والإنسانية إلى التسليم بأن هناك تصورا محددا لطبيعة الوجود الإجتماعي، ولأبنيته ومكوناته وتفاعلاته. يفرض هذا التصور نمطا معيناً من الأسئلة التي تطرح، ومن الإجابات المحتملة المقدمة (الفرضيات)، ومن طرق المعالجة والتحقق والمعالجة، ومن المناهج المستخدمة في الدراسة، ومن مجموع المفاهيم والتعاريف، ...إلخ. ويُفضي في النهاية إلى بناء نموذج معرفي Paradigm يكون مقبولا وسائدا لدى الجماعة العلمية في إطار تخصص دراسي معين، ويصبح المُرشِد والمُوجِّه لكل المشتغلين والمهتمين بهذا التخصص الدراسي. وعند الوصول إلى هذه المرحلة، فإن التخصص قد حقق هدف الوصول إلى ما سماه توماس كون بالعلم القياسي Normal Science أو العلم الناضج Mature science، أين يسود نموذج معرفي واحد يشتغل في إطاره كل الباحثين المنتمين إلى التخصص الدراسي نفسه.

لكن واقع الدراسات والأبحاث في العلوم الاجتماعية الإنسانية، اليوم، لا يُنبئ بتحقيق فكرة العلوم القياسية أو الناضجة، أو خضوعها لمفهوم النموذج المعرفي بالشكل الذي قدمه توماس كون. فالتعددية والإختلاف هما السمتان الغالبتان لكل ما يتعلق بدراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية، سواء من الناحية الفلسفية، أو الأنطولوجية، أو الإبيستمولوجية، أو المنهجية، أو الأكسيولوجية مثلما يجادل به فلاسفة ما بعد الوضعية Post-Positivism. بل وينفون أي إمكانية للوصول إلى بناء نماذج معرفية (إرشادية) في العلوم الاجتماعية والإنسانية على شاكلة ما هو موجود في العلوم الطبيعية والفيزيائية. أهمية موضوع البحث:

ترتبط أهمية موضوع البحث بالجدل القائم حول الدور الذي يمكن أن تلعبه "النماذج المعرفية" في رسم وتحديد الأجندات البحثية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وفي توجيه الممارسات العلمية للباحثين في كل تخصص علمي، سواء أدرك الباحثون هذا الأمر أم لم يدركوه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إمكانية التملص والتحرر من القيود التي تفرضها هذه النماذج، أي إمكانية أن يُفكر ويشغل الباحثون من خارج الأطر والقواعد التي ترسمها وتحددها النماذج المعرفية. الإشكالية:

رغم الجهود الكبيرة التي بذلها العلماء والباحثون في شتى مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية من أجل بناء نماذج معرفية وإرشادية، تكون بمثابة الدليل البحثي الذي يتبعه المشتغلون في حقل دراسي معين، إلا أن كثرة هذه النماذج وتنوعها من جهة، وغياب الإجماع والإتفاق حول أي منها يجب اعتماده دليلاً بحثياً في الحقل الدراسي الواحد من جهة أخرى، جعل من فكرة إخضاع كل علم من العلوم الاجتماعية والإنسانية لنموذج معرفي واحد غير مُستساغة، ولا هي بالممكنة عملياً. لذلك، تعالت أصوات تنادي بضرورة احترام التعددية والإختلاف والخصوصية التي تميز كلا من الإجتماع البشري والظواهر التي ينتجها. وعليه، يمكن صياغة إشكالية هذا البحث في مجموعة من الأسئلة التالية: ما المقصود بالنموذج المعرفي؟ وما مرتكزاته ووظائفه؟ هل يمكن الوصول إلى نمذجة معرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتحويلها إلى علوم قياسية بتعبير توماس كون؟ وما العوائق التي يمكن أن تحول دون تحقيق هذا الهدف؟.

## الفرضية العامة:

يراهن فلاسفة ما بعد الوضعية على فكرة أن الحقائق الإجتماعية تتعالى بطبيعتها الفلسفية في أن تُقَوَّلَب في شكل مفاهيمي أو نظري واحد وموحد، ثابت وجامد، مطلق ونهائي. وعليه، فدائماً هناك إمكانية لقولبة وإعادة قولبة الحقائق حسب السياق الإجتماعي الذي تنشأ فيه. ومنه، لا يمكن الإكتفاء أو الوثوق في نموذج معرفي معين كسبيل للوصول إلى هذه الحقائق. وما يمنع هذه الإمكانية، هو خصائص الظاهرة الإجتماعية والإنسانية نفسها التي تختلف اختلافا جذريا عن خصائص الظاهرة الطبيعية.

## عناصر البحث:

- لأجل الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها في الإشكالية، اعتمدنا على العناصر التالية:
- مفهوم النموذج المعرفي.
- إمكانية النمذجة المعرفية في العلوم الإجتماعية والإنسانية.
- عوائق وتحديات النمذجة المعرفية في العلوم الإجتماعية والإنسانية.

## أولاً: مفهوم النموذج المعرفي

تستخدم عبارة "نموذج معرفي"، في الغالب، كمقابل وترجمة لكلمة Paradigm الإنجليزية أو Paradigme الفرنسية. مع أن هناك من يستخدم عبارات أخرى مثل النموذج الفكري، والنموذج الإدراكي، والنموذج الإرشادي، والنظام المعرفي، والناظم المعرفي، والضابط المعرفي<sup>1</sup>. وهناك من يحافظ على لفظها الأجنبي مستخدماً عبارتي "البراداييم"، و"البراديغم". ومع أن استخدام كلمة براداييم قديم جداً، ويرجع إلى العهد اليوناني، إلا أن استخدامها بالمعنى الحديث يرتبط أكثر بفيلسوف العلم المعاصر توماس كوهن، من خلال كتابه "بنية الثورات العلمية" الذي نشره في العام 1962.

من الناحية اللغوية، تُشتق كلمة Paradigm من الأصل اللاتيني Paradigma التي بدورها مشتقة من الأصل اليوناني Paradeigma، وتعني "نمط أو مثال"<sup>2</sup>. وتقريباً نجد هذا المعنى للكلمة في جميع القواميس والموسوعات. ففي قاموس التراث الأمريكي للغة الإنجليزية نجدها تشير إلى: (1) نمط أو مثال، (2) مجموعة أو قائمة بجميع أشكال التصريف لكلمة أو

إحدى فئاتها النحوية: براداييم الفعل غير المنتظم<sup>3</sup>. وفي قاموس كامبريدج تشير إلى نموذج لشيء ما، أو مثال واضح ونموذجي لشيء ما<sup>4</sup>. وفي قاموس مريام ويبستر تعني مثالاً أو نمطاً<sup>5</sup>. وفي اللغة العربية، ورد في قاموس المعجم الوسيط أن الأنموذج هو المثال الذي يُعمل عليه الشيء كالنموذج. والنموذج مثال الشيء. وهي كلمة مُعرَّبة أصلها فارسي<sup>6</sup>. ويبدو أن المعاني اللغوية لكلمة براداييم (النموذج) فيما أوردناه من تعاريف تلتقي حول ما توحى به كلمة مثال، لكنها في الحقيقة، لا تُوضح أو تحدد لنا المقصود بالبراداييم، خاصة كما استخدمه توماس كون.

من ناحية الإصطلاح، ترد تعاريف كثيرة لمفهوم البراداييم أو النموذج المعرفي، حتى أن كون نفسه، استخدم المصطلح بأكثر من مدلول واحد في الطبعة الأولى من كتابه، ليضطر في الطبعة اللاحقة أن يُذيل الكتاب بشرح لما قصده بمفهوم البراداييم. إذ يُقر بأنه استخدم المصطلح في الجزء الأعظم من كتابه بمعنيين مختلفين، الأول يُعبر عن "مجموع المعتقدات والقيم المتعارف عليها والتقنيات المشتركة بين أعضاء مجتمع بذاته"، والمعنى الثاني يشير إلى "الحلول الواقعية للألغاز، التي إذا ما استخدمت كنماذج أو أمثلة يمكن أن تحل محل القواعد الصريحة كأساس لحل الألغاز المتبقية في نطاق العلم القياسي"<sup>7</sup>. ويؤكد على أن المعنى الثاني هو الأكثر توافقاً وتعبيراً مع ما يقصده بالنموذج المعرفي. ومع ذلك، حتى المعنى الثاني يبقى مُهماً ويحتاج إلى مزيد من الإيضاح والتحديد. لذلك فإن متابعة ما ورد في حاشية الكتاب يُسلط الضوء أكثر على مفهوم النموذج المعرفي، إذ يعده بمثابة القاسم المشترك بين أعضاء الجماعة أو المجتمع العلمي<sup>8</sup>، لكن على ماذا يحتوي هذا القاسم المشترك؟ قد يكون نظرية أو مجموعة من النظريات، أو قالبا أو مصفوفة بحثية Disciplinary Matrix تجمع الباحثين الأخصائيين تحت مبحث معرفي ودراسي محدد، وتفرض التزامهم الجمعي والمشارك بمعتقدات وقيم وأمثلة معينة<sup>9</sup>.

ولقد أسهمت كتابات المهتمين بأعمال توماس كون حول مفهوم النموذج المعرفي في تجلية وتحديد المفهوم أكثر. حيث يشير جلال شوقي، مترجم كتاب "بنية الثورات العلمية"، إلى أن ما يقصده كون بالنموذج المعرفي هو "تلك النظريات المعتمدة كنموذج لدى مجتمع من الباحثين العلميين في عصر بذاته، علاوة على طرق البحث المميزة لتحديد وحل المشكلات العلمية، وأساليب فهم الوقائع التجريبية"<sup>10</sup>. ويذهب عبد الوهاب المسيري إلى

أنه "صورة عقلية للعالم، تُشكل ما يمكن تسميته خريطة معرفية، ينظر الإنسان من خلالها إلى الواقع"<sup>11</sup>. ويتقاطع هذا التعريف إلى حد بعيد مع مفهوم "رؤية العالم" وعلاقته بالنموذج المعرفي التي سنشير إليها فيما بعد. يرى نصر عارف بأنه "مجموعة متألّفة منسجمة من المعتقدات والقيم والنظريات والقوانين والأدوات، يشترك فيها أعضاء مجتمع علمي معين، وتمثل تقليدا بحثيا كبيرا أو طريقة في التفكير والممارسة، ومرشدا أو دليلا يقود الباحثين في حقل معرفي معين"<sup>12</sup>. وعند هنري إلتان هو "مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي تشكل الإطار الفكري، الذي يمكن من خلاله تنظيم الخبرات والتجارب، وتفسير النتائج، وصياغة النظريات"<sup>13</sup>. وفي اعتقاد توماس وولكر أن مفهوم البراداييم لدى توماس كون يتضمن "النظريات والمناهج وقواعد ومعايير الممارسات البحثية العلمية في المجتمع العلمي أو البحثي"<sup>14</sup>. وبالنسبة لـ غوبا ولينكولن، يُعتبر النموذج المعرفي "مجموعة من المعتقدات الأساسية التي تتعامل مع المبادئ الأولى، إنه يمثل رؤية العالم World View التي تُحدد لصاحبها طبيعة العالم، مكانة الإنسان فيه، ومجال وحدود العلاقات الممكنة مع هذا العالم وأجزائه"<sup>15</sup>.

يميز فتحي حسن ملكاوي بين مفهوم النموذج المعرفي كما ورد عند توماس كون، وبين مفهوم النظام المعرفي الذي طوره عدد من المفكرين العرب، خاصة إسماعيل الفاروقي ومنى أبو الفضل. فالنظام المعرفي أشمل وأوسع من النموذج المعرفي، بحيث يركز على تحديد نمط العلاقات الممكنة التي تقوم بين الإله، الكون، الطبيعة، والإنسان. وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين نوعين من النظم المعرفية: "نظام معرفي ديني يؤمن بالغيب ويعترف بالوحي، ويقدم رؤية شاملة تجيب عن الأسئلة النهائية المتعلقة بالكون والحياة والإنسان. ونظام معرفي لا ديني، علماني، دهرري، ينكر الغيب، ولا يؤمن بوحي خارجي، ويقدم رؤية شاملة تجيب عن الأسئلة النهائية بطريقة مختلفة تماما عن النظام المعرفي الأول"<sup>16</sup>. ووفق هذا التمييز، يُعتبر ملكاوي أن كلا من الوضعية وما بعد الوضعية ينتميان للنظام المعرفي (الغربي) نفسه، رغم ما بينهما من فوارق. والنظام المعرفي الذي يختلف عنهما هو النظام التوحيدي (الإسلامي).

ويرتبط مفهوم النموذج المعرفي ارتباطا وثيقا بمفهوم رؤية العالم World View، لكنه يختلف عنها في الوقت نفسه. تُعبّر رؤية العالم عن "مجموعة متجانسة من المفاهيم،

تسمح لنا بصياغة تصور كوني عام للعالم، وفهم لأكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا وتجاربنا<sup>17</sup>. وهي تُسهم في فهم الأسس والخلفيات الكامنة وراء أي موضوع<sup>18</sup>. ولا يتأتى هذا الفهم إلا بإدراك وتحديد الموقف من الأسئلة التي تطرحها الأنطولوجيا، الإبيستمولوجيا، والميتودولوجيا. فالسؤال الأنطولوجي يرتبط بمعرفة شكل وطبيعة الواقع، وبالتالي ما الشيء الموجود هناك والذي يمكن أن تكون لنا معرفة حوله؟ والسؤال الإبيستمولوجي يرتبط بطبيعة العلاقة بين العارف أو الباحث عن المعرفة، وماذا يمكن أن يعرف (إمكانية معرفة الوجود)؟ والسؤال الميتودولوجي (المهجي) يرتبط بالكيفية أو الطريقة التي يمكن أن يتبعها الباحث لمعرفة ما يعتقد أنه بإمكانه معرفته؟<sup>19</sup>. إن الإجابة عن هذه الأسئلة تحدد رؤية العالم لدى الباحث، وتسهم في تحديد النموذج المعرفي الذي سوف يشتغل في إطاره، وبدون هذه الرؤية لا يمكن تأسيس نظام (نموذج) معرفي لدراسة الظاهرة الإجتماعية<sup>20</sup>.

كما يرتبط مفهوم النموذج المعرفي بمفهوم "الجماعة العلمية" Scientific Community، لكنه يختلف عنها كذلك. فالجماعة العلمية، كما يحددها توماس كون نفسه، هي مجموعة من الممارسين العلميين (العلماء والباحثين) الذين يتشاركون في نموذج معرفي واحد، وينتمون لتخصص علمي محدد، تلقوا تعليماً مهنيًا متشابهًا، واستخلصوا منه الدروس نفسها<sup>21</sup>. والجماعة العلمية أسبق وجودًا وتشكلًا من النموذج المعرفي، لكن في الوقت نفسه، يُسهم النموذج المعرفي بشكل حاسم في تشكل هذه الجماعة وفي تحديد هويتها المعرفية.

وتتميز النماذج المعرفية بخاصية اللامقايضة Incommensurability، أي لا يمكن مقارنة النماذج ببعضها البعض، لأنه لا يوجد معيار أو مقياس مشترك يمكن إجراء المقارنة على أساسه. فـ "كل معرفة صحيحة قياسًا إلى نسقتها وبالنسبة إلى نموذجها الإرشادي دون معايير للحكم على الصواب والخطأ غير الرجوع إلى السياق أو النموذج الإرشادي"<sup>22</sup>. وفكرة عدم القابلية للقياس أو اللامقايضة تعود أصولها إلى الرياضيات اليونانية القديمة، حيث كانت تعني عدم وجود مقياس مشترك بين الأحجام. ثم تلقفها كل من توماس كون وبول فيرابند وطبقوها على عملية المقارنة بين النماذج والنظريات المتنافسة. ويرجع غياب هذا المعيار أو المقياس المشترك إلى بنية وخصائص النماذج المعرفية نفسها، من حيث أنها تستخدم مفاهيم وأساليب مختلفة لمعالجة مشاكل مختلفة. في هذا الصدد، يجادل

فيرابند أنه في سياق التقدم العلمي، عندما تتغير النظريات الأساسية، تتغير المعاني، مما قد يؤدي إلى تصور جديد لطبيعة الواقع<sup>23</sup>.

تلعب النماذج المعرفية دورا كبيرا وحاسما في عملية التقدم العلمي والمعرفي، وفي نضج العلوم وكفاءتها. إذ تُوجه وترشد الباحثين في حقل معرفي معين إلى المشاكل التي تستحق الإهتمام، وإلى معرفة مناهج وطرق حلها<sup>24</sup>. فالنموذج المعرفي هو الذي يحدد ماذا ندرس؟ وما الأسئلة التي ينبغي أن تثار؟ وكيف تصاغ؟ وما الإجراءات المتبعة في تفسير نتائج البحث<sup>25</sup>. وحسب كون، لا يمكن لأي عالم أو باحث أن يشتغل خارج الأطر التي ترسمها وتحددها المناهج المعرفية القائمة، سواء بوعي منه بهذه الأطر، أو بغير وعي. والسبب يكمن في نمط التكوين العلمي الذي تلقاه العالم أو الباحث، والقائم على فكرة التلقين التربوي<sup>26</sup>. إذ عادة ما يتم تعلم قواعد ممارسة المعرفة العلمية من خلال الإنخراط في المؤسسات التي تُلقنها، بحيث تصبح جزءا من مسلمات المتعلمين بها. وهذه المؤسسات، بشكل رئيس، هي المدرسة والجامعة والكتب والدراسات المطبوعة.

وعند الحديث عن مفهوم النموذج المعرفي لا يمكن إغفال مدى ارتباطه بمفهوم الثورات العلمية Scientific Revolutions والعلم القياسي (العادي) Normal Science. حيث يعتقد توماس كون أنه بدون قيام الثورات العملية لا يمكن أن تتعاقب النماذج المعرفية، أو يتم إرساء علم قياسي، أي الانتقال من نموذج معرفي سائد إلى نموذج معرفي جديد يحل محله، والانتقال من العلم الشاذ (ما قبل العلم) إلى العلم القياسي. يجادل كون أن أي علم يمر بمرحلتين أساسيتين: (1) مرحلة العلم القياسي أو العادي، والذي يُعرّفه بأنه "البحث الذي رسخ بنيانه على إنجاز أو أكثر من إنجازات الماضي العلمية، وهي إنجازات يعترف مجتمع علمي محدد، لفترة زمنية، بأنها تشكل الأساس لممارسته العلمية مستقبلا"<sup>27</sup>، إنه العلم الذي يهيمن فيه نموذج معرفي معين على الحقل الدراسي ويحتكره، ويصبح بمثابة التقليد البحثي السائد بين مجموع المشتغلين بهذا العلم. (2) مرحلة العلم غير العادي (الشاذ) أو مرحلة الأزمة، أين يدخل النموذج المعرفي السائد في أزمة عدم القدرة والكفاية على تفسير ما يستجد من ظواهر، وبالتالي تبرز الحاجة الملحة إلى نموذج جديد يستطيع تفسير الظواهر الجديدة، بالإضافة إلى القديمة. وتمثل عملية الانتقال من

النموذج القديم إلى النموذج الجديد ما يسميه كون ب "الثورة العلمية". وتاريخ تطور العلوم هو تاريخ تتبع الثورات العلمية التي تحدث فيها. يجادل كون أن الثورات العلمية التي تُكَلَّل بالنجاح في أحد الحقول المعرفية تمثل في الحقيقة انقلابا معرفيا في الحقل. حيث يحدث تغيير جذري لدى أعضاء المجتمع العلمي في تحديدهم للمشكلات ذات الأولوية والإهتمام البحثي، وفي المفاهيم المستخدمة لحل هذه المشكلات، وحتى في رؤية العالم وتحديد طبيعته ومكوناته. يقول كون في هذا الصدد: "عندما تتغير النماذج الإرشادية يتغير معها العالم ذاته. وانقيادا للنماذج الإرشادية الجديدة يتبنى العلماء أدوات جديدة، ويتطلعون بأبصارهم صوب اتجاهات جديدة. بل وأهم من ذلك أن العلماء إبان الثورات يرون أشياء جديدة ومغايرة عندما ينظرون من خلال أجهزتهم التقليدية إلى الأماكن التي اعتادوا النظر إليها وتفحصها قبل ذلك. ويبدو الأمر وكأن الجماعة العلمية المتخصصة قد انتقلت فجأة إلى كوكب آخر، حيث تبدو الموضوعات التقليدية في ضوء مغاير وقد ارتبطت في الوقت ذاته بموضوعات أخرى غير مألوفة"<sup>28</sup>.

ثانيا: إمكانية النمذجة المعرفية<sup>29</sup> في العلوم الإجتماعية والإنسانية.

إن ما قدمه توماس كون حول مفاهيم النماذج المعرفية والعلوم القياسية والثورات العلمية كان نتاج أبحاثه ودراساته المعمقة حول التطور التاريخي للعلوم الفيزيائية، وتحديدًا بعد الإنجازات التي حققها العالم إسحق نيوتن. وإذا كان من الممكن تطبيق هذه المفاهيم على الحقول والتخصصات العلمية الأخرى المشابهة لعلوم الفيزياء، فإن الجدل يثار حول إمكانية تطبيقها في دراسة عملية التطور أو التقدم العلمي في العلوم الإجتماعية والإنسانية. وبتعبير آخر، هل يمكن أن توجد نماذج معرفية في العلوم الإجتماعية على شاكلة ما هو موجود في العلوم الفيزيائية؟ وهل يمكن أن تقود إلى إرسائها علوما قياسية وناضجة؟

يجادل أنصار الفلسفة الوضعية Positivism أن إمكانية تكوين نماذج معرفية في العلوم الإجتماعية والإنسانية تأتي من إمكانية إخضاع دراسة ظواهرها لقواعد المنهج العلمي المتعارف عليها في دراسة الظواهر الطبيعية. فتحديد ما ندرسه من ظواهر وكيف

ندرسها، كفيل بإنشاء وتكوين نموذج معرفي يتبعه العلماء والباحثون في فرع دراسي من فروع العلوم الاجتماعية، ويصبح بمثابة دليلهم البحثي.

وقبل الخوض في مزاعم الوضعيين وحججهم ومرتكزاتهم حول إمكانية النمذجة المعرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، لا بد من التذكير بأن أغلب العلماء والباحثين يعتبرون أن الوضعية نفسها تُعد نموذجا معرفيا، ويطلقون عليها "البراداييم الوضعي" Positivist Paradigm. ولا تختص الوضعية هنا، كنموذج معرفي، بفرع علمي بذاته، بل تدّعي أن لها قابلية للتطبيق على عموم العلوم الاجتماعية والإنسانية، أي أن جميع فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية يمكن إخضاعها لنموذج معرفي واحد، هو النموذج الوضعي، على أن مخرجاته تختلف من فرع أو تخصص علمي إلى آخر، بحسب طبيعة وحدود كل تخصص. فالنماذج المعرفية (الوضعية) التي ستنشأ في مجال الإقتصاد مثلا سوف تكون مختلفة عنها في مجال السياسة، والأمر نفسه بالنسبة لبقية الفروع العلمية الأخرى.

وينبع الإدعاء الوضعي بقدرته على إخضاع العلوم الاجتماعية والإنسانية لعمليات النمذجة المعرفية من الافتراضات التي تقوم عليها الوضعية نفسها. ويتمثل افتراضها الأساسي، الذي تنبني عليه بقية الافتراضات الأخرى، في المماثلة أو المشابهة بين الظاهرتين الطبيعية والاجتماعية من حيث الخصائص، والأحكام التي تسري عليهما. إن دراسة الظاهرة الاجتماعية وفق هذا التسليم تقتضي الأخذ بعين الاعتبار ما يلي:<sup>30</sup>

1- اعتبار الإحساس Sense مصدرا وحيدا للمعرفة الاجتماعية. في هذا الصدد يقول دوركايم: "إن العالم لا يستطيع أن ينهج منهجا آخر غير اعتبار الإحساس نقطة بدء لدراسته ... ولن يستطيع أن يتحرر من الأفكار الشائعة ومن الألفاظ التي تُعبر عن هذه المعاني إلا إذا جعل الإحساس هو المادة الأولية التي لا بد منها في نشأة كل معنى كلي".

2- اعتبار نموذج علوم الطبيعة سلطة مرجعية للعلوم الإنسانية. في هذا الصدد يقول أوغست كونت: "إننا ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين. فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير".

3- إخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب، بهدف تحقيق العلمية في العلوم الإنسانية. والمقصود بالتجربة هنا هو التجربة الاجتماعية التي تقوم على مقارنة الظواهر في حال تشابهها واختلافها. في هذا الصدد يقول سان سيمون: "إن أكبر وأشرف وسيلة لدفع العلم نحو التقدم هو جعل العالم في إطار التجربة، ولا نقصد العالم الكبير وإنما هذا العالم الصغير، يعني الإنسان الذي نستطيع إخضاعه للتجربة".

4- شيئية الظواهر الاجتماعية. في هذا الصدد يقول دوركايم: "إن الظواهر الاجتماعية أشياء" ويجب أن تدرس على أنها أشياء".

كما تقتضي كذلك الاعتقاد بأن الظاهرة الاجتماعية تخضع لمبادئ الانتظام regularity، السببية أو العلية Causality، والحتمية Determinism. فالانتظام يعني الحدوث المتكرر للظاهرة وفق ذات النمط، مهما كان الاختلاف في الزمان أو المكان. والسببية تعني أن لكل حادث في الكون سبب أحدثه، ولكل علة معلول ينشأ عنها بالضرورة. وهذا يفضي إلى أن يكون الكون حتميا في نظامه وتكوينه، وفي نمط العلاقات السائدة فيه. فلا تخلف فيه، ولا مصادفة، ولا استثناء ولا احتمال، كل حدث لا بد أن يحدث بالضرورة ويستحيل ألا يحدث، أو أن يحدث سواه<sup>31</sup>. إن هذا يقودنا في النهاية إلى القول بأن العالم الاجتماعي يخضع إلى مجموعة من القوانين التي تنتظمه، مثله في ذلك مثل العالم الطبيعي. وأن إمكانية اكتشاف هذه القوانين رهن باتباع قواعد المنهج العلمي التجريبي.

إن القبول والتسليم بالإفتراضات والمبادئ التي قامت عليها فلسفة الوضعية من قبل الباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية والإشتغال في إطارها، يعتبر خطوة حاسمة نحو بناء نموذجهم المعرفي. حيث يجعلهم يتقاسمون ويشتركون في الرؤية "المادية" للعالم الاجتماعي، ويشتركون في أهداف البحث والدراسة المتعلقة بكشف القوانين "الاجتماعية"، وكذا في المناهج والأدوات والأساليب البحثية، وفي المفاهيم والنظريات التي ستتولد ... إلخ. ويمكن للمراقب والمتابع لتطور العلوم الاجتماعية والإنسانية أن يلحظ، بوضوح، ذلك العزم والإصرار من قبل الباحثين المختصين فيها على نمذجتها، والإرتقاء بها إلى مصاف العلوم القياسية والناضجة، من خلال تبني مبادئ الفلسفة الوضعية إطارا حاكما لها. إذ تؤكد يمى طريف الخولي أن الفلاسفة العقلانيين في القرن الثامن عشر، وفي مقدمتهم كل

من هولباخ، دولامبير، لامتري، وكوندروسيه، راهنوا على إمكانية تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية. وفي القرن التاسع عشر دعا كل من جون ستيورات مل، من خلال كتابه "في منطق العلوم الاجتماعية" إلى مضاعفة الجهد لتأسيس علوم اجتماعية مماثلة تماما للعلوم الطبيعية. وأوجست كونت إلى تأسيس "فيزياء اجتماعية". وابتداء من الربع الثاني من القرن العشرين خطلت العلوم الاجتماعية والإنسانية خطوات هائلة في مسار العلم الدقيق<sup>32</sup>. بل إن البعض يعد فروعاً أو تخصصات علمية مثل الإقتصاد والمحاسبة والمالية علومًا قياسية وناضجة. وقد بات من الشائع في العديد من الأبحاث والدراسات التعامل مع كبريات النظريات الاجتماعية، في الإقتصاد والسياسة والإجتماع، على أنها برادايما أو نماذج معرفية، مع الإعتراف بخاصية التعايش البرادايمي، نتيجة لفشل أي برادايما في الهيمنة على الحقل المعرفي الذي ينشأ فيه.

وحتى ولو سلمنا بعدم وجود نماذج معرفية في فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية، وأن هذه الأخيرة بعيدة عن معايير العلم القياسي والناضج، فإن هذا لا ينفي ولا ينكر حقيقة أن العلوم الاجتماعية والإنسانية قد خطت خطوات عملاقة على طريق التقدم والنضوج العلمي، قياساً بحجم وطبيعة المشكلات التي يواجهها علماء الإجتماع والإنسان مقارنة بعلماء الطبيعة. كما أن هناك فارق الزمن الذي استغرقت العلوم الطبيعية في أن تحقيق المكانة التي وصلت إليها.

### ثالثاً: عوائق وتحديات النمذجة المعرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

يجادل المعارضون لإمكانية بناء نماذج معرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، أن ذلك يرجع إلى طبيعة وخصائص الظاهرة الاجتماعية التي تختلف كلية عن نظيرتها الطبيعية، حيث لا يُنتظر أن يكون هناك أي نوع من الإجماع حول رؤية العالم الاجتماعي (أنطولوجيته)، أو حول المواضيع والإشكاليات التي تُبحث، أو حول المفاهيم والأفكار والنظريات المنتجة، أو حول الأساليب والمناهج التي تستخدم، ... إلخ. بل إن الاختلاف والتناقض هو ما يطبع كل ما سبق، وعليه فإن فكرة تشكل الجماعة العلمية التي تتقاسم نموذجاً معرفياً واحداً هي بعيدة المنال، فضلاً عن إمكانية الوصول إلى مفهوم العلم القياسي أو العادي كما قدمه توماس كون.

وفي الغالب، نجد فلاسفة "ما بعد الوضعية" Post-Positivism هم من يقفون وراء هذه المعارضة، رغم أن البعض يعتبر أن ما بعد الوضعية، نفسها، تمثل نموذج معرفيا في العلوم الاجتماعية الإنسانية. لكن تطبيقاتها العملية لا تقود إلى بناء نماذج معرفية راسخة وتأسيس علم ناضج تتوحد فيه الجماعة العلمية حول نموذج معرفي واحد.

وإذا عدنا إلى توماس كون نفسه، فإننا نجده يُقر بصعوبة تطبيق وجهة نظره عن التقدم العلمي ودور النماذج المعرفية فيه على العلوم الاجتماعية والإنسانية، إذ عبر عن اندهاشه من حجم الفروقات الموجودة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية قائلا: "إنني قضيت عاما كاملا وسط مجتمع يضم أساسا علماء متخصصين في العلوم الاجتماعية، واجهوني بمشكلات لم أعهد لها من قبل، تتعلق بأوجه الاختلاف بين هذا الطراز من الجماعات، وبين جماعات علماء الطبيعة الذين نشأت بينهم. وأذهلني بوجه خاص، كم ومدى الاختلافات الصريحة فيما بين العلماء الاجتماعيين بشأن طبيعة المشكلات والمناهج العلمية المشروعة"<sup>33</sup>. وقبله أكد العديد من الفلاسفة والمفكرين، الذين يحسبون على تيار ما بعد الوضعية، على خصوصية الظاهرة الاجتماعية التي تجعل من العلوم الاجتماعية مُختلفة ومُتخلفة عن العلوم الطبيعية بمعيار التقدم عند كون. حيث تحدث فيلهلم ديلتاي عن مشكلتين حددتا هذا التخلف: الأولى، تتعلق بغياب تصوّر واضح ومتّفق عليه حول الأهداف والمناهج المشتركة والعلاقات بينها في مجال العلوم الاجتماعية مقارنة بما هو سائد في العلوم الطبيعية؛ والثانية، هي أن درجة التقدم الذي بلغته العلوم الطبيعية فرضت لدى الرأي العام (العلمي) سقفا ونموذجا للمعرفة لا يتلاءم مع ما هو حاصل من تقدم في العلوم الإنسانية<sup>34</sup>.

وبالنسبة إلى تشارلز تايلور، فإن ما يُعيق عملية بناء نماذج معرفية والالتزام بها هو تعقد الظواهر الاجتماعية ذاتها. إذ لا يكفي، فقط، ملاحظة الظاهرة الاجتماعية ورصد ملامحها حتى تتمكن من فهمها. بل يجب تفسيرها، وتحديد الأسباب الكامنة وراءها، ومعرفة القوانين التي تحكمها. وعند الوصول إلى هذه المرحلة من البحث، فإن العلماء والباحثين يواجهون ثلاث مشكلات مترابطة: الأولى، إن أجزاء كل ظاهرة اجتماعية تفسر كليتها، والعكس صحيح أيضا؛ والثانية، إن كل جزء من جزئيات الظاهرة يفسر بقية الأجزاء، والعكس صحيح أيضا؛ والثالثة، إن لكل تفسير تفسيرات متعددة<sup>35</sup>. ويؤكد جورج

هومانز على المشكلة الثالثة المتعلقة بتعدد تفسيرات الظاهرة الواحدة، إذ يعترف أن الصعوبات التي تواجه باحثي العلوم الاجتماعية والإنسانية تتعلق بالتفسير أكثر مما تتعلق بالكشف أو بالوصف. فبينما يمكن أن تتكامل التفسيرات المختلفة للظاهرة الطبيعية الواحدة أو يتم التوافق وترجيح إحداها على البقية، نجد أن التفسيرات في العلوم الاجتماعية والإنسانية يمكن أن تتنازع وتتناقض، وقد تبلغ حد التضاد الصريح<sup>36</sup>. وعلى خطاهما، تُقر معنى طريف الخولي أن أساس ما يُعرف بمشكلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، يتمثل في حُلّ جميع فروعها، تقريبا، من أي نسق متكامل من القوانين التفسيرية، يُماثل من حيث القوة المنطقية أنساق القوانين التفسيرية في أقل فروع العلوم الطبيعية حظوة من التقدم<sup>37</sup>.

إن مراجعة الأسس والإفراضات التي تقوم عليها فلسفة ما بعد الوضعية تُجلي لنا بوضوح أسباب عدم إمكانية بناء نماذج معرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، واستحالة تحول هذه الأخيرة إلى علوم ناضجة وقياسية. يعود أولى هذه الأسباب إلى الرؤية الفلسفية لفكرة الحقيقة، حيث يجادل فلاسفة ما بعد الوضعية أن الحقيقة هي مبنية اجتماعيا، أي أنها نتاج التفاعل الذي يحدث بين الأفراد (تذاتانية - Intersubjectivity)، وتخضع للسياق الاجتماعي الذي تنشأ فيه<sup>38</sup>. مما يجعلها مفهوما ديناميكيا يرتبط بتغير الزمان والمكان، بل وتغير السياق الاجتماعي، الأمر الذي يجعلها تتسم بالنسبية Relativity. ويجعلها ترتبط كذلك بقيم الباحث عنها، مما يؤدي إلى نفي صفات الموضوعية والحيادية والتحرر من القيم عنها<sup>39</sup>. إن هذا يعني أن الحقيقة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية غير مطلقة، وغير نهائية، وغير ثابتة، وليست كلا واحدا. فيمكن أن تختلف وتتعدد الحقائق حول الشيء الواحد في الوقت نفسه، ويمكن أن تتجزأ. وبالتالي هناك دائما أكثر من ادعاء واحد حول امتلاك الحقيقة، وما من طريقة أو منهج حاسم لإقرار صحة أحد هذه الإدعاءات على حساب البقية. وهذا يقودنا في النهاية إلى نفي إمكانية أن يحتكر أي نموذج معرفي الحقيقة الاجتماعية. ولو سلمنا فرضا بإمكانية قيام نماذج معرفية متعددة تعكس الطبيعة التعددية لفكرة الحقيقة الاجتماعية، يبقى من المتعذر أن ينال أحدها القبول والإجماع المفضي إلى قيام العلم الناضج والقياسي.

وثاني الأسباب يتعلق بالبعد الأنطولوجي للظاهرة الاجتماعية، فهي من طبيعة مثالية، أي ليس لها وجود مادي صرف كما الظاهرة الطبيعية، وإنما هي نتاج التفاعل الاجتماعي الإرادوي بين الأفراد، وكذلك الممارسات الاجتماعية والثقافية والحضارية السائدة. مما يجعلها تتصف دائما بالسياقية، والمحلية، والخصوصية. وهذا ما يجعل من الظاهرة الاجتماعية تختلف عبر الزمان والمكان، ومعه الاختلاف في تحديد المشكلات الاجتماعية، وطرق معالجتها وحلها، والمفاهيم والنظريات المستخلصة بشأنها.. إلخ. وهذا يقف حجر عثرة، في النهاية، أمام نمذجة المعرفة في العلوم الاجتماعية.

وثالث الأسباب يتعلق بالبعدين الإبستمولوجي والمنهجي، حيث يجادل فلاسفة ما بعد الوضعية أنه لا يمكن معرفة أي شيء بشكل يقيني، وأنه لا توجد معرفة تتسم بالموضوعية والحيادية، ولا يوجد منهج وحيد وموثوق يمكن أن يوصلنا إلى الحقائق الاجتماعية. في هذا الصدد، يعترف كارل بوبر أن موقفه من نظرية المعرفة الذي صاغه في العام 1934 قد سبقه إليه كزينوفانس Xenophanes قبل 2500 سنة، حينما قال<sup>40</sup>:

لم تبح الآلهة لنا، نحن الفانين، منذ البداية بكل شيء.

ولكننا نجتهد عبر الأيام باحثين عن الأفضل.

لن يعرف أي إنسان الحقيقة اليقين، ولن يعرفها أحد،

لا عن الآلهة ولا عن الأشياء التي أتكلم عنها.

وحتى لو نجح امرؤ يوما ما في العلم بالحقيقة على أكمل وجوها،

فإنه لم يعرفها ولن يعرفها إطلاقا: فكل شيء محبوبك بالتخمين.

ويؤكد على أن المجتمع العلمي يجب أن يكون مجتمعا منفتحا، وحذرا اتجاه أية نظرية أو نموذج معرفي، مهما كان حجمهما أو نجاحهما<sup>41</sup>. وفي السياق نفسه، يجادل ميشال فوكو أن الأنساق المعرفية أو العلمية يمكنها أن تكون صحيحة فقط في سياقها الاجتماعي والتاريخي الذي نشأت فيه، وهو معيار الحكم عليها<sup>42</sup>. وهذا يعني نفي إمكانية وجود معرفة اجتماعية ذات صبغة عالمية وكونية.

وما يصدق على طبيعة المعرفة الاجتماعية ينسحب على طبيعة مناهجها. إذ لا يمكن تطبيق مناهج وضعية، صُممت لدراسة ظواهر ذات طبيعة مادية بحتة، على دراسة ظواهر ذات طبيعة مثالية. ولقد رافع كل من ماكس فيبر وفيلهلم ديلتاي لصالح استقلالية

العلوم الاجتماعية والإنسانية بمناهج خاصة بها، إذ يؤكدان على أن المنهج الذي يستخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ما يلي<sup>43</sup>:

1- إن اعتبار الإنسان هو مركز الكون، وله الأفضلية الوجودية على باقي موجودات

الكون يقتضي عند دراسة سلوكه أن لا نحتكم إلى قواعد المنهج العلمي المعمول بها

في العلوم الطبيعية، لأن ذلك سيُصادر حرية الإنسان وإرادة المعرفة لديه.

2- إذا كان التفسير هو غاية المنهج في العلوم الطبيعية، فإن غاية المنهج في العلوم

الاجتماعية هو فهم الظواهر الإنسانية. ذلك أن ثمة اختلافات جوهرية بين المناهج

التفسيرية التي تلائم مجالات العلم الإمبريقي، لاسيما العلوم الطبيعية والدقيقة،

وتلك التي يتطلبها الفهم الملائم لسلوكيات البشر والكائنات العضوية الأخرى، سواء

بوصفها أفراداً أو جماعات. في حين أن بناء علاقات سببية وارتباطية في علم

النفوس والعلوم الاجتماعية والتاريخية أمر غير ممكن، لذا فإن الفهم الملائم

للظواهر التي تدرسها هذه العلوم يتطلب أنماطاً مغايرة من التفسير (الغائي مثلاً).

3- إن تطبيق قواعد المنهج الوضعي في دراسة الظواهر الاجتماعية، أدخلت العلوم

الاجتماعية "الغربية" في أزمة معرفية عميقة، عبر عنها إدموند هوسرل بقوله: "إن

أزمة العلوم الاجتماعية في الحقل الغربي هي أزمة تعبر عن الأفق المعرفي المحدود

للمنهج الوضعي الذي تم استخدامه في دراسة الإنسان، أي حوّل الذات الإنسانية

إلى موضوع دراسة مثلها مثل مواضيع الطبيعة التي تدرسها العلوم الطبيعية".

4- إذا كان المنهج العلمي الذي تستخدمه العلوم الدقيقة إلى اكتشاف الحقيقة في

الطبيعة بما هي تطابق بين الواقع الحسي والمدركات العقلية، فإن "الحقيقة التي

يطمح إليها الباحث في العلوم الإنسانية ليست خارجة كعنصر أجنبي عنه وغريب،

وإنما بداخله ومحايثة لنشاطه المعرفي، لتصبح العلوم الإنسانية من هذا المنظور

مرآة يرى بواسطتها إمكانياته المعرفية وحدوده، فالمعرفة في العلوم الإنسانية لها

دوما علاقة بمعرفة الذات".

5- إن استخدام التحليل الرياضي في علم الاجتماع حوّلته إلى مجرد معرفة شكلانية

خارجية عن الواقع الاجتماعي. ولقد عبر جيفاني عن هذه المشكلة بالقول: "إن

التحليل الرياضي للوقائع الاجتماعية، ونمذجة الصيرورات الاجتماعية، وحتى

النماذج المصطنعة، كإنجازات فردية لنماذج رياضية، أو بدون معادل رياضي مباشر، يسمحان لنا أحيانا بإدراك الوقائع أو الصيرورات، ولكن لاشيء آخر غير الأشكال".

6- تسعى العلوم الاجتماعية إلى التركيب وليس إلى التحليل؛ إذ تعمل العلوم الاجتماعية على الوقوف على العناصر البنائية المشكلة للظاهرة الاجتماعية. على عكس العلوم الطبيعية التي تعالج الظاهرة كمواضيع خارجية معطاة.

ويقود تبني منهج الفهم بدل منهج التفسير في العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى أن تكون الفهم والمعارف والنظريات التي نُحصِّلها من دراسة ظاهرة ما صادقة، وفقط، على تلك الظاهرة، ولا يمكن تعميمها على باقي الظواهر الأخرى، لأن كل ظاهرة اجتماعية لها سياقها الخاص الذي يختلف عن سياقات الظواهر الأخرى. وهذا يقف حاجزا أمام عملية توحيد وتعميم المفاهيم والنتائج على مختلف الظواهر، وبالنتيجة أمام عملية النمذجة المعرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

رابع الأسباب يتعلق بالبعد الأكسيولوجي في مسألة العلم والمعرفة، هل يمكن بناء علوم اجتماعية وإنسانية ذات صبغة كونية وعالمية ومتحررة من القيم؟ يجيب ما بعد الوضعيين بالنفي القاطع لاعتبارات عديدة، منها ما ذكرناه في الأسباب السابقة المتعلقة بطبيعة الظاهرة الاجتماعية، وطبيعة المعرفة، وطبيعة المناهج المستخدمة. يضاف إليها مسائل أخرى تجعل من العلوم الاجتماعية والإنسانية علوما "قيمية". نذكر منها مسألة موضوعية وحيادية اللغة، فاللغة هي كذلك معطى اجتماعيا، والألفاظ والمفاهيم المتداولة ليست لها قيمة خارج السياق الاجتماعي الذي تُعرف وتُستعمل فيه. أو على الأقل، فإنها تثير مشكلات الالتباس وسوء التفاهم إذا ما استعملت خارج سياقها الاجتماعي. يقول كارل بوبر أنه "لا يمكن تجنب سوء التفاهم مهما بلغت درجة الإلتقان في العرض ... إذ يمكن إساءة فهم كل ما هو لغوي"<sup>44</sup>. وهنا بدل أن تكون اللغة عامل توحيد في بناء النماذج المعرفية وتقدم ونضج العلوم الاجتماعية، فإنها تلعب الدور العكسي.

المسألة الثانية تخص علاقة العلم والمعرفة بالقوة أو السلطة. إذ يجادل ميشال فوكو أن المعرفة تحتاج دائما إلى سلطة تسندها وتساعد على الإنتشار والقبول في الأوساط العلمية والأكاديمية، وذلك بطرق عديدة كالتمويل مثلا. وفي المقابل، تحتاج

السلطة إلى معرفة تشرعن أفعالها ومصالحها وتبررها. يقول وينكل أنه "يكاد يكون من المستحيل أن يجد المرء مثالا واحدا للأبحاث العلمية "الخالصة" في الدوائر العلمية الغربية، ويكاد يكون من المستحيل كذلك العثور على بحث يسير وفق خطة لا تتناغم مع القوة المتعاضمة للدولة"<sup>45</sup>.

والمسألة الثالثة تتعلق بالتحيز والذاتية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، بما في ذلك النماذج المعرفية، مما يحول دون اكتسابها صفة العالمية والكونية، ويبقيها في دائرة الخصوصية والمحلية. إذ يؤكد المسيري أن لكل نموذج بعده المعرفي الذي يركز على مجموعة من المعتقدات والفروض والمسلمات والإجابات عن أسئلة كلية ونهائية تشكل جذوره الكامنة وأساسه العميق، وتزوده ببعده الغائي<sup>46</sup>. ووصف حمدي حسن النماذج المعرفية بأنها عوالم متحيزة من الأفكار والرؤى، ينطوي كل منها على رؤية كلية للوجود World View، ترسم وتحدد الأطر العامة التي تتحرك فيها ومن خلالها مختلف أنماط التحليل الثقافي<sup>47</sup>. وادعى وينكل أن العلوم الاجتماعية المعاصرة متحيزة بشكل فاضح وتعكس الثقافة الأوروبية، ونادرا ما تتم الإشارة إلى هذا التحيز في كتابات المفكرين الغربيين، وذلك بسبب أن الثقافة الغربية المهيمنة قد بلغت مدى غير مسبوق من العالمية والإختراق لغيرها من الثقافات<sup>48</sup>.

إذا عدنا إلى واقع حال العلوم الاجتماعية والإنسانية، فإن هناك من ينفي وجود نماذج معرفية أو علوم قياسية بالمعنى الذي قدمه توماس كون. بل إن كون نفسه تساءل عن إمكانية أن يحوز أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية نموذجا معرفيا (مهيمنًا) خاصا به، خاصة إذا علمنا أن أولى النماذج المعرفية التي حظيت بالقبول في أحد فروع علم الأحياء (الوراثة) لا تزال حديثة جدا<sup>49</sup>. وذهب جون واتكنز حذا بعيدا في نفيه وجود نماذج معرفية وعلوم قياسية، بالمعنى الذي قدمه كون، حتى في العلوم الفيزيائية نفسها. إذ يجادل أن هناك فترات طويلة من التاريخ العلمي لم يظهر فيها نموذج معرفي واضح، واختفت فيها الأعراض النمطية للعلم القياسي أو السوي. ويعضد جداله بما ذهب إليه كارل بوبر من "إنه على الرغم من أن مبدأ نيوتن تحول إلى شيء يشبه النموذج بالمعنى الذي ينادي به كون، فلم يظهر أي نموذج أثناء الفترة التاريخية الطويلة لنظرية المادة"<sup>50</sup>. يضيف واتكنز أنه منذ عصر ما قبل سقراط إلى الوقت الحاضر هناك مناقشات لا تنته بين

أفكار مستمرة وغير مستمرة عن المادة، بين نظريات متنوعة عن الذرة من جهة، والأثير والموجة ونظريات المجال من جهة أخرى. ليصل في نهاية مقاله إلى القول بأنه "ليس حقيقيا أن النموذج يسيطر سيطرة كاملة احتكارية على عقول العلماء لدرجة أنهم لم يكونوا قادرين على انتقاده أو التلاعب به، دون قبول (بالضرورة) بدائل له. وهذا يعني أن المجتمع العلمي ليس في نهاية الأمر مجتمعا مغلقا صفته الرئيسية رفض المناقشات النقدية".<sup>51</sup>

### الخاتمة:

في ختام هذا البحث، يمكن استخلاص النتائج التالية:

- 1- وجوب إدراك الأهمية والدور الكبير الذي تلعبه النماذج المعرفية في توجيه الباحثين والطلبة نحو اختيار: مشكلاتهم البحثية، الأفكار والمفاهيم والنظريات التحليلية التي سوف يستخدمونها، الأساليب والمناهج المتبناة، العينات الدراسية والبحثية المختارة، .. إلخ. مع ضرورة التنبه إلى أن هذه النماذج ليست حيادية أو متحررة من أي قيم ثقافية وحضارية، وإنما هي وليدة البيئة والسياق الاجتماعي الذي وُلدت وتطورت فيه. وعليه، يجب التعامل مع مكونات كل نموذج معرفي بحذر، وعدم الإنزلاق وراء استسهال إطلاق أحكام التعميم من خلال المفاهيم والنظريات التي نستخدمها في دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية.
- 2- طبيعة الظواهر الاجتماعية والإنسانية المدروسة تحتم على الباحث عدم الإيهام أو الوثوق في مخرجات نموذج معرفي بعينه، مهما كان حجم انتشاره وقبوله في الأوساط العلمية والأكاديمية. وهذا يعني ضرورة الإنفتاح على مختلف المنتوجات العلمية والفكرية (أفكار، مفاهيم، نظريات ..)، حتى ولو لم تكن مهيلكة أو مقولبة في نموذج معرفي معين.
- 3- إن الحكم بصعوبة الوصول إلى نمذجة معرفية وإلى تأسيس علوم اجتماعية قياسية وناضجة بمفهوم ومعايير توماس كون للتقدم العلمي، لا يعني بالضرورة أن هذه العلوم لا تتقدم أو غير قابلة للتطور. وإنما يعني أن طبيعة هذه العلوم تجعلها تتقدم بطريقة مختلفة ومغايرة لطريقة تقدم العلوم الطبيعية، وأن دراسة وقياس مدى تقدمها يمكن أن يتم بطرق أخرى غير التي ابتكرها كون.

4- ستظل العلوم الطبيعية والفيزيائية معيارا مرجعيا لقياس التقدم الحاصل في العلوم الاجتماعية والإنسانية، رغم إقرار ما بينهما من اختلافات، ورغم الإخفاقات التي ما تزال تلاحق علوم الطبيعة نفسها في حل الكثير من المشكلات التي تواجهها، بل وتُسببها في خلق مشكلات انتقلت من الطبيعة إلى الإنسان والمجتمع.

### الهوامش:

<sup>1</sup> عارف نصر محمد، مفهوم النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به، في ملكاوي فتحي حسن (محرر)، نحو نظام معرفي إسلامي. (ط1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2000، ص62.

<sup>2</sup> Arts Bas, Chalker Sylvia, Weiner Edmund, *The Oxford Dictionary of English Grammar*, 2nd edition, Oxford University Press, United Kingdom, 2014, p286

<sup>3</sup> Göktürk Erek, What is paradigm?, <https://bit.ly/3byKmGp>, 05/09/2020.

<sup>4</sup> Cambridge Dictionary, "paradigm", <https://bit.ly/2Zie9y9>, 05/09/2020.

<sup>5</sup> Merriam-Webster, "paradigm", <https://bit.ly/325owHa>, 05/09/2020.

<sup>6</sup> مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (ط 4)، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004، ص.ص 31.956.

<sup>7</sup> كون توماس، بنية الثورات العلمية، (ترجمة جلال شوقي)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1992، ص.ص 222-221.

<sup>8</sup> المرجع نفسه، ص223.

<sup>9</sup> المرجع نفسه، ص.ص 229-232.

<sup>10</sup> المرجع نفسه، ص11.

<sup>11</sup> المسيري عبد الوهاب، العالم من منظور غربي، دار الهلال، القاهرة، 2001، ص15.

<sup>12</sup> عارف، مرجع سابق، ص66.

<sup>13</sup> Rumelhard Guy, *problématisation et concept de paradigme approche épistémologique, psychologique, sociologique . Problème et problématisation*, N° 40, 2005, p206.

<sup>14</sup> Walker Thomas, *The Perils of Paradigm Mentalities: Revisiting Kuhn, Lakatos, and Popper, Perspectives on Politics*, (Vol 8), N° 2 , 2010, p435.

<sup>15</sup> Guba, E. G., & Lincoln, Y. S, *Competing paradigms in qualitative research* , In N. K. Denzin & Y.S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research*, Thousand Oaks, CA: Sage, 1994, p107.

<sup>16</sup> ملكاوي فتحي حسن، طبيعة النظام المعرفي وأهميته، في ملكاوي فتحي حسن (محرر)، نحو نظام معرفي إسلامي، (ط1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2000، ص32.

<sup>17</sup> فيدال كليمنت، مصطلح رؤية العالم، (ترجمة بركات أحمد)، 2011/06/17، <https://bit.ly/2ZmPdFK>, 2020/09/01.

<sup>18</sup> عبد الرحمن شريف، إشكاليات تفعيل المنظور الحضاري. في مصطفى نادية محمود وعامري ماجدة إبراهيم، إشكاليات تفعيل وتطبيق المنظور الحضاري الإسلامي في بحوث وقضايا العلاقات الدولية، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، القاهرة، 2018، ص40.

<sup>19</sup> Guba and Lincoln, *op.cit*, p108.

<sup>20</sup> بريمة محمد الحسن، الظاهرة الاجتماعية ونظامها المعرفي في القرآن الكريم، في ملكاوي فتحي حسن (محرر)، نحو نظام معرفي إسلامي، (ط1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2000، ص221.

<sup>21</sup> كون، مرجع سابق، 223.

<sup>22</sup> المرجع نفسه، ص15.

<sup>23</sup> *Stanford Encyclopedia of Philosophy, The Incommensurability of Scientific Theories, Feb 25 2009, <https://stanford.io/2DMK4iH>, 05/09/2020.*

<sup>24</sup> Rumelhard, op.cit, p205.

<sup>25</sup> الغامدي عبد الله بن جمعان، تحولات النماذج المعرفية في علم السياسة خلال نصف قرن، شؤون اجتماعية، العدد 92، 2006، ص36.

<sup>26</sup> كون، مرجع سابق، ص33.

<sup>27</sup> المرجع نفسه، ص39.

<sup>28</sup> المرجع نفسه، ص151.

<sup>29</sup> نقصد بمصطلح النمذجة المعرفية هنا ما يقابل اللفظة الإنجليزية paradigmatisation، أي إيجاد وبناء براديمات في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية.

<sup>30</sup> امزيان محمد محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، (ط1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1991، ص. ص50-55.

<sup>31</sup> الخولي يمني طريف، مشكلة العلوم الإنسانية: تقنيها وإمكانية حلها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص37.

<sup>32</sup> المرجع نفسه، ص.ص43-45.

<sup>33</sup> كون، مرجع سابق، ص22.

<sup>34</sup> الخولي، مرجع سابق، ص35.

<sup>35</sup> سالم أحمد علي، الكم والكيف في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية عامة، والسياسية خاصة (قراءة في الجدل بين دارسي المتغيرات والحالات وما غاب عنهم من مشكلات بناء المفاهيم)، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 24، خريف 2009، ص114.

<sup>36</sup> الخولي، مرجع سابق، ص47.

<sup>37</sup> المرجع نفسه، ص35.

<sup>38</sup> تشيرتون ميل وبراون آن، علم الاجتماع: النظرية والمنهج، (ترجمة هناء الجوهري)، المركز القومي للترجمة، مصر، (ط1)، 2012، ص175.

<sup>39</sup> غريفيثس مارتن وأوكالاها تيري، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، مركز الخليج للأبحاث، الإمارات، 2008، ص355.

<sup>40</sup> بوبركارل، منطق البحث العلمي، (ترجمة محمد البغدادي)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، (ط1)، 2006، ص50.

<sup>41</sup> واتكنز جون، ضد العلم السوي، في توماس كون وآخرون، مقالات نقدية في تركيب الثورات العلمية، (ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص67.

<sup>42</sup> وينكل أبو منير إيريك، منظورات علم السياسة في مرحلة ما بعد الحداثة من منظور إسلامي، ترجمة محمد الطاهر الميساوي، إسلامية المعرفة، العدد 4، أفريل 1996، ص136.

<sup>43</sup> مهورباشة عبد الحليم، علم الاجتماع في العالم العربي: من النقد إلى التأسيس نحو علم العمران الإسلامي، مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، الأردن، (ط1)، 2018، ص.ص63-67.

<sup>44</sup> بوبر، مرجع سابق، ص51.

<sup>45</sup> وينكل، مرجع سابق، ص138.

<sup>46</sup> المسيري، مرجع سابق، ص21.

<sup>47</sup> حسن حمدي عبد الرحمن، التحولات المعرفية في علم السياسة، في فتحي حسن ملكاوي (محرر)، نحو نظام معرفي إسلامي، أعمال الحلقة الدراسية التي عقدت في عمان/ الأردن بتاريخ 10-11 يونيو 1998، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (ط1)، 2000، ص388.

<sup>48</sup> وينكل، مرجع سابق، ص147.

<sup>49</sup> كون، مرجع سابق، ص45.

<sup>50</sup> واتكنز، مرجع سابق، ص80.

<sup>51</sup> المرجع نفسه، ص86.